مواقف وبطولات

من ١٠ : ١٤ سنة

فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ

تحقُّق بِشارة النَّبِي ﷺ

كتبها

أحمد تمام

رسمها

محمد نبيل

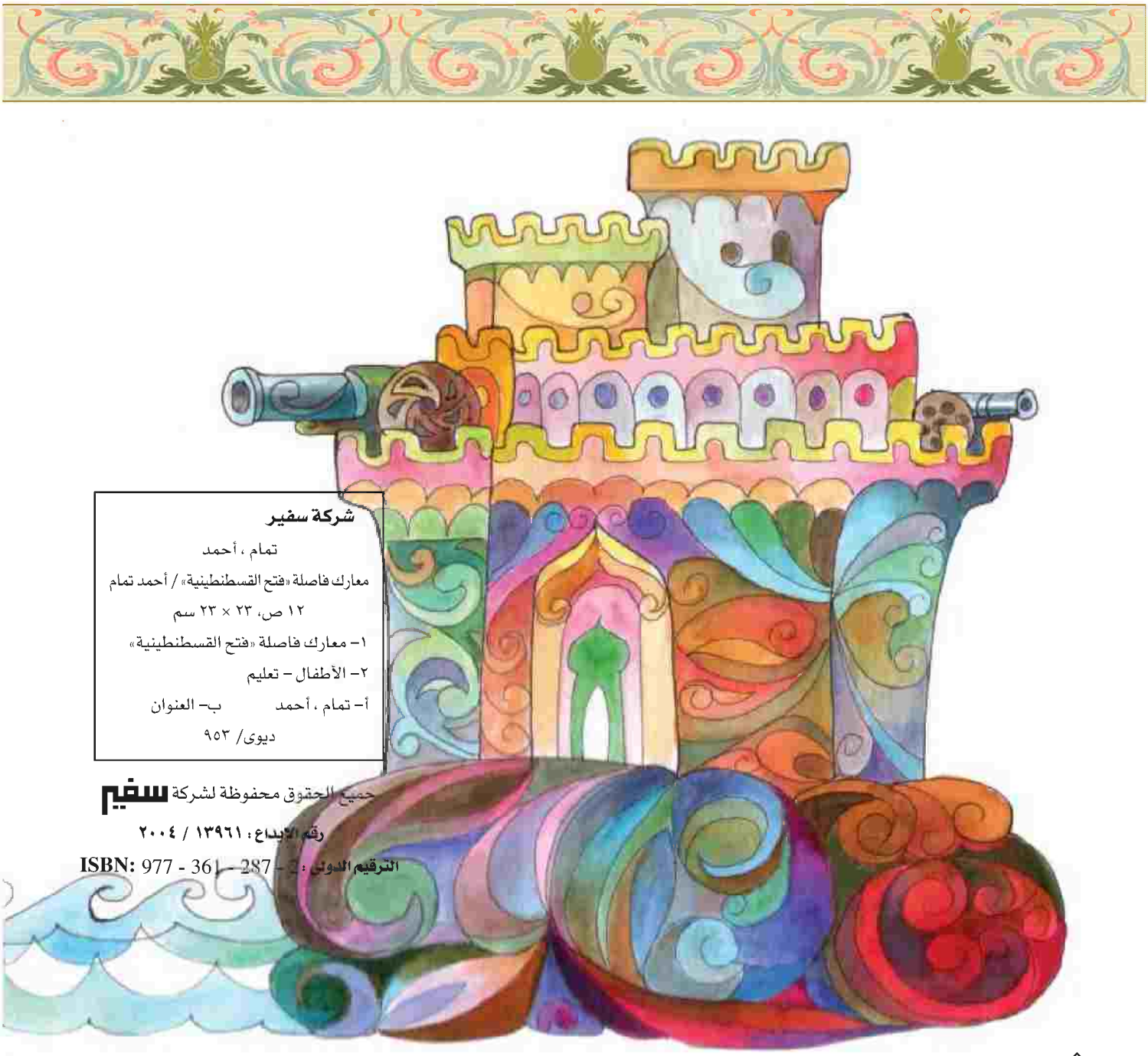

شركة سفير

تمام ، أحمد

معارك فاصلة «فتح القسطنطينية» / أحمد تمام

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- معارك فاصلة «فتح القسطنطينية»

٢- الأطفال - تعليم

أ- تمام ، أحمد ب- العنوان

ديوى/ ٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة لشركة **سفير**

رقم الإيداع: ١٣٩٦١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: ISBN: 977 - 361 - 287 - 3

تَولَّى السُّلْطَانُ «مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ» عَرْشَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ سَنَةَ (٨٥٥هـ = ١٤٥١م)، شَابًّا فَتِيًّا فِى العِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، مُمْتَلِئًا حَمَاسًا وَطُمُوحًا، يُرَاوِدُهُ حُلْمُ فَتْحِ مَدِينَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، ذَلِكَ الحُلْمُ الجَمِيلُ الَّذِى دَاعَبَ القَادَةَ المُسْلِمِينَ ثَمَانِيَةَ قُرُونٍ كَامِلَةٍ، مُنْذُ عَهْدِ الصَّحَابِىِّ الجَلِيلِ «مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَان» ... كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَودُّ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ البِشَارَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِى بَشَّرَ بِهَا النَّبِىُّ «مُحَمَّدٌ» ﷺ : «لَتُفْتَحُنَّ القُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ».

وَكَانَ السُّلْطَانُ «مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ» كُلَّمَا سَمِعَ هَذَا الحَدِيثَ النَّبَوِىَّ مِنْ أَسَاتِذَتِهِ وَهُوَ صَبِىٌّ صَغِيرٌ اشْتَعَلَتْ فِى نَفْسِهِ الرَّغْبَةُ فِى أَنْ يُحَقِّقَ هَذِهِ البِشَارَةَ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الأَمِيرُ الَّذِى مَدَحَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

وَحِينَ تَوَلَّى السَّلْطَنَةَ قَوِيَتْ عِنْدَهُ فِكْرَةُ فَتْحِ المَدِينَةِ العَظِيمَةِ الَّتِى فَشَلَ أَعْظَمُ القَادَةِ فِى اقْتِحَامِ أَسْوَارِهَا المَنِيعَةِ، وَسَيْطَرَتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ عَلَى مَشَاعِرِهِ، فَأَصْبَحَ لا يَتَحَدَّثُ إِلا فِى أَمْرِ الفَتْحِ، وَلا يَأْذَنُ لأَحَدٍ مِمَّنْ يَجْلِسُ مَعَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ فِى مَوْضُوعٍ غَيْرَ هَذَا المَوْضُوعِ .. وَأَصْبَحَ فَتْحُ مَدِينَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ، الَّذِى لا يُفَارِقُهُ فِى لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَقَوَّى مِنْ إِصْرَارِهِ عَلَى فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ أَنَّهَا تُسَهِّلُ لِبِلادِهِ فُتُوحَاتِهَا فِى مِنْطَقَةِ «البَلْقَانِ»، وَتَجْعَلُ بِلادَهُ مُتَّصِلَةً لا يَفْصِلُهَا أَرْضٌ يَحْكُمُهَا أَعْدَاؤُه.

وَكَانَتِ الخُطْوَةُ الأُولَى فِى تَحْقِيقِ هَذَا الحُلْمِ هُوَ السَّيْطَرَةُ عَلَى مَضِيقِ «البُسْفُورِ»، وَإِحْكَامُ الرِّقَابَةِ عَلَى السُّفُنِ المَارَّةِ فِيهِ حَتَّى يَحْرِمَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ مِنْ أَيَّةِ مُسَاعَدَاتٍ تَأْتِى إِلَيْهَا مِنْ أُورُبَّا، وَعَلَى الفَوْرِ قَامَ بِبِنَاءِ قَلْعَةٍ بِالقُرْبِ مِنْ أَسْوَارِ المَدِينَةِ وَعَلَى أَضْيَقِ مَكَانٍ فِى «البُسْفُورِ»، وَجَمَعَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَوادَّ البِنَاءِ وَآلافَ العُمَّالِ والبَنَّائِينَ والمُهَنْدِسِينَ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ السَّلْطَنَةِ، واشْتَرَكَ هُوَ بِنَفْسِهِ مَعَ كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ فِى أَعْمَالِ البِنَاءِ، وَكَانَ إِمْبَراطُورُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ كُلَّمَا نَظَرَ مِنْ مَدِينَتِهِ، وَجَدَ القَلْعَةَ يَرْتَفِعُ بِنَاؤُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، وَهُوَ عَاجِزٌ أَنْ يُوقِفَ البِنَاءَ أَوْ يَمْنَعَهُ، فَيَزْدَادُ الحُزْنُ فِى قَلْبِهِ، وَيَعْتَصِرُ الشُّعُورُ بِالعَجْزِ كُلَّ أَعْضَائِهِ.

وَلَمْ تَمْضِ ثَلاثُ أَشْهُرٍ حَتَّى تَمَّ بِنَاءُ القَلْعَةِ الَّتِى عُرِفَتْ بِقَلْعَةِ الرُّومِ، وَفِى مُوَجَهَتِهَا عَلَى الضِّفَّةِ الأُخْرَى مِنَ البُسْفُورِ كَانَتْ تَقِفُ قَلْعَةُ الأَنَاضُولِ الَّتِى بَنَاهَا السُّلْطَانُ «بَايزِيدُ الصَّاعِقَةُ» وَلَمْ يَعُدْ مُمْكِنًا لأَىِّ سَفِينَةٍأن تَمُرَّ دُونَ إِذنٍ مِنَ القُوَّاتِ العُثْمَانِيَّةِ، حَيْثُ كَانَتِ المدَافِعُ الضَّخْمَةُ المَنْصُوبَةُ عَلَى الشَّاطِئِ تُصَوِّبُ أَفْوَاهَهَا إِلى القَنَاةِ.

أَدْرَكَ الإِمْبِرَاطُورُ «قُسْطَنْطِينُ» الحَادِى عَشَرَ أَنَّ الأَمْرَ جِدٌّ، وَأَنَّ السُّلْطَانَ مُحَمَّدًا الفَاتِحَ عَازِمٌ عَلى فَتْحِ المَدِينَةِ

التَّلِيدَة، وَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ أَعْظَمَ اسْتِعْدادٍ، فَقَامَ الإِمْبِرَاطُورُ بِإِصْلاحِ أَسْوَارِ المَدِينَةِ المُهَدَّمَةِ، وَجَمْعِ مَا عِنْدَ النَّاسِ مِنْ ذَخَائِرَ وَمُؤَنٍ وَبَعَثَ بِسَفَارَاتٍ إِلَى أُورُبَّا يَطْلُبُ النَّجْدَةَ وَالمُسَاعَدَةَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ الكَارْدِينَالُ «إِيزِيدُور» مَبْعُوثُ البَابَا فِي «روما» وَمَعَهُ مِائَتَا مُقَاتِلٍ لِنَجْدَةِ المَدِينَةِ، وَجَاءَ مُتَطَوِّعًا مِن «جِنْوة» الإِيطَالِيَّةِ القَائِدُ «جُون جُسْتَنْيَان» عَلَى سَفِينَةٍ مُحَمَّلَةٍ بِالمُؤَنِ والذَّخَائِر، وَأُخْرَى تَحْمِلُ سَبْعَمِائَةِ مُقَاتِلٍ، وَقَدِ اسْتَقْبَلَهُ الإِمْبَرَاطُورُ اسْتِقْبَالا حَسَنًا، وَعَيَّنَهُ قَائِدًا عَامًّا لِقُوَّاتِهِ، فَأَخَذَ عَلَى عَاتِقِهِ أَمْرَ تَنْظِيمِ الدِّفَاعِ عَنِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَطَلَبَ مِنَ الإِمْبَرَاطُور إِغْلاقَ الخَلِيجِ الذَّهَبِيِّ بِسِلْسِلَةٍ حَدِيدِيَّةٍ تَمْنَعُ دُخُولَ أَيِّ سَفِينَةٍ عُثْمَانِيَّةٍ إِلَى الخَلِيجِ، وَكَانَ هَذَا أَكْبَرَ مُعْضِلَةٍ وَاجَهَتِ العُثْمَانِيِّين، لأَنَّ سُفُنَهُم كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَحْمِلَ الجُنُودَ، وَتَدْخُلَ بِهِمْ إِلَى الخَلِيجِ لإِنْزَالِهِم لِكَيْ يُهَاجِمُوا أَسْوَارَ القُسْطَنْطِينِيَّة.

أَمَّا فِى «أَدِرْنَةَ» عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ فَكَانَتِ الاسْتِعْدَادَاتُ تَجْرِى عَلَى خَيْرِ وَجْهٍ، وَأَصْدَرَ السُّلْطَانُ أَوَامِرَهُ بِإِبْعَادِ البِيزَنْطِيِّينَ المُجَاوِرِين للأَسْوَارِ، وَأَهَالِى القُرَى المُجَاوِرَةِ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَفَقَدَتِ المَدِينَةُ الكَبِيرَةُ الاتِّصَالَ بِالْبِلادِ المُجَاوِرَةِ، وَأَصْبَحَ عَلَيْهَا أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى المُؤَنِ والذَّخَائِرِ المَوجُودَةِ بِدَاخِلِهَا. وَكَانَ حَمَاسُ الجَيْشِ العُثْمَانِىِّ عَظِيمًا بَعْدَ أَنْ سَيْطَرَتْ على مَشَاعِرِهِ رُوحُ الجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وإِعْزَازِ دِينِهِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ «مُحَمَّدٌ» أَكْثَرَهُم حَمَاسًا وَأَشَدَّهُمْ لَهْفَةً عَلَى فَتْحِ المَدِينَةِ العَرِيقَةِ.

وَفِى أَثْنَاءِ انْشِغَالِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِالتَّجْهِيزِ لِلْفَتْحِ حَضَرَ إِلَيْهِ المُهَنْدِسُ المَجَرِىُّ النَّابِغَةُ «أُورْبَانُ»، فَأَحْسَنَ السُّلْطَانُ اسْتِقْبَالَهُ وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ الأَمْوَالَ، وَوَضَعَ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ كُلَّ مَايَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِيتمكَّنَ مِنْ صُنْعِ المَدافِعِ اللازِمَةِ لِدَكِّ أَسْوَارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ أَتَمَّ «أُورْبَانُ» صُنْعَ عَدَدٍ مِنَ المَدَافِعِ، مِنْ بَيْنِهَا مَدْفَعٌ ضَخْمٌ عِمْلاقٌ لَمْ يُرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ يَزِنُ سَبْعَمِائَةِ طِنٍّ، وَتَزِنُ القَذِيفَةُ الوَاحِدَةُ ١٥٠٠ كيلوجِرَامٍ، وَتُسْمَعُ طَلَقَاتُهُ مِنْ مسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ، ويجرُّه مِائَةُ ثَوْرٍ، يُسَاعِدُهُا مِائَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الأَشِدَّاءِ، وَقَدْ قَطَعَ هَذَا المَدْفَعُ الَّذِى أُطْلِقَ عَلَيْهِ المدْفَعُ السُّلْطَانِىُّ الطَّرِيقَ مِن «أَدِرْنَةَ» إِلَى

مَوْضِعِهِ أَمَامَ أَسْوَارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ فِى مُدَّةِ شَهْرَيْنِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ السُّلْطَانُ «مُحَمَّدٌ» اسْتِعْدَادَاتِهِ تَحَرَّكَتْ قُوَّاتُهُ الجَرَّارَةُ مِنْ «أَدِرْنَةَ» إِلى «القُسْطَنْطِينِيَّةِ»، تَرُجُّ الأَرْضَ رَجا، وَتَمْلأُ آفَاقَ السَّمَاءِ بِدَقَّاتِ الطُّبُولِ، وَكَانَتْ تَشْكِيلاتُ الجُنْدِ المُخْتَلِفَةُ تَبْعَثُ فِى النَّفْسِ الثِّقَةَ والاطْمِئْنَانَ، وَهِىَ تَسِيرُ فِى نِظَامٍ رَافِعَةً أَعْلامَهَا، حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِنْ أَسْوَارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ فِى (٢٣ من ربيع الأول ٨٥٧ هـ = الخامس من شهر إبريل ١٤٥٣م)، ثُمَّ أَقَامَ السُّلْطَانُ مَرْكَزَ قِيَادَتِهِ أَمَامَ بَابِ القدِّيسِ «رُومَانُس»، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّى الجَيْشُ كُلُّهُ، وَبَدَأَ يُعِدُّ لِلحِصَارِ الفِعْلِىِّ لِلمَدِينَةِ الحَصِينَةِ.

وَبدأت المَدَافِعُ العُثْمَانِيَّةُ تُطْلِقُ قَذَائِفَهَا الهَائِلَةَ عَلَى الأسوارِ دُونَ انْقِطَاعٍ لَيْلا أَوْ نهارًا، وَكَانَ دَوِيُّهَا يَمْلأُ قُلُوبَ أَهْلِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ فَزَعًا وَرُعْبًا وَخَاصَّةً فِى سَاعَاتِ اللَّيْلِ الهَادِئَةِ، لكِنْ دُونَ جَدْوَى، فَكُلَّمَا انْهَدَمَ جَانِبٌ مِنَ السُّورِ سَارَعَ المُدافِعُونَ عَنِ المَدِينَةِ بِتَرْمِيمِهِ وإِصْلاحِهِ، وإِذَا نَجَحتْ جَمَاعَاتٌ مِنَ الجُنْدِ العُثْمَانِيِّينَ فِى تَسَلُّقِ السُّورِ واقْتِحَامِهِ اسْتَبْسَلَ «جُسْتَنْيَانُ» وَمَنْ مَعَهُ فِى الدِّفَاعِ عَنِ السُّورِ، وَرَدِّ المُهَاجِمِينَ البَوَاسِلِ، وإِلْحَاقِ خَسَائِرَ فَادِحَةٍ فِى صُفُوفِهِم.

وَحَاوَلَتِ السُّفُنُ العُثْمَانِيَّةُ تَحْطِيمَ السِّلْسِلَةِ القَائِمَةِ عَلَى مَدْخَلِ مِينَاءِ القَرْنِ الذَّهَبِيِّ، لَكِنَّ السُّفُنَ البِيزَنْطِيَّةَ والإِيطَالِيَّةَ المُكَلَّفَةَ بِالحِرَاسَةِ والرَّاسِيَةِ وَرَاءَ السِّلْسِلَةِ كَانَتْ أَكْثَرَ ارْتِفَاعًا، فَنَجَحَتْ فِى اصْطِيَادِ السُّفُنِ العُثْمَانِيَّةِ وَرَمْيِها بِالقَذَائِفِ وإِجْبَارِهَا عَلَى التَّرَاجُعِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ سَيْطَرَةِ البَحَّارَةِ العُثْمَانِيِّين عَلَى مَضِيقِ البُسْفُورِ، فإِنَّ خَمْسَ سُفُنٍ مُحَمَّلَةٍ بِالجُنُودِ وَالمُؤَنِ والسِّلاحِ نَجَحَتْ فِى اخْتِرَاقِ هَذا الحِصَارِ، وَعَجَزَتِ السُّفُنُ العُثْمَانِيَّةُ فِى مَنْعِهَا مِنَ الدُّخُولِ إِلَى المِيناءِ بَعْدَ أَنِ اشْتَبَكَتْ مَعَهَا فِى مَعْرَكَةٍ دَامِيَةٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ السُّفُنُ قَدْ بَعَثَتْ بِهَا أُورْبَّا لِنَجْدَةِ المَدِينَةِ المُحَاصَرَةِ وَكَانَتْ هَذِهِ المَعْرَكَةُ دَافِعًا للسُّلْطَانِ لكى يُفَكِّرَ فِى خُطَّةٍ لإِدْخَالِ سُفُنِهِ إِلَى دَاخِلِ مِينَاءِ القَرْنِ الذَّهَبِيِّ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ تِلْكَ السِّلْسِلَةَ الهَائِلَةَ الَّتِى تَمْنَعُ دُخُولَ سُفُنِهِ، وَتَحْرِمُهَا مِن إِنْزَالِ الجُنُودِ لِمُحَاصَرَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ أَضْعَفِ جَوَانِبِهَا.

وَكَانَتْ هَذِهِ الخُطَّةُ تَقُومُ عَلَى نَقْلِ (٦٧) سَفِينَةً مِنَ السُّفُنِ الخَفِيفَةِ عَبْرَ البَرِّ مِنْ مِنْطَقَةِ «غَلَطَةَ» إِلَى دَاخِلِ الخَلِيجِ الذَّهَبِيِّ مُتَفَادِيَةً تِلْكَ السِّلْسِلَةَ المَنِيعَةَ، وَتَمَّتْ هَذِهِ العَمَلِيَّةُ فِى (٢٣ من ربيع الآخر ٨٥٧ هـ = ٢٢ من شهر إبريل ١٤٥٣م) بِوَضْعِ أَخْشَابٍ مَطْلِيَّةٍ بِالزَّيْتِ والشَّحْمِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ، وَدُفِعَتِ السُّفُنُ لِتَنْزَلِقَ عَلَى هَذِهِ الأَخْشَابِ المَطْلِيَّةِ فِى جُنَحِ الظَّلامِ، فِى الوَقْتِ الَّذِى لَمْ تَكُفَّ فِيهِ المَدَافِعُ العُثْمَانِيَّةُ عَنْ إِطْلاقِ قَذَائِفِ نِيرَانِهَا، فَلَمْ يَنْتَبِهِ البِيزَنْطِيُّون لِمَا يَحْدُثُ.

وَاسْتَيْقَظَ أَهْلُ المَدِينَةِ فِى صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِى عَلَى تَكْبِيرَاتِ الجُنُودِ المُدَوِّيَةِ الَّتِى تَهُزُّ أَجْوَاءَ الفَضَاءِ، وَهُتَافَاتِهِم المُتَصَاعِدَةِ وَأَنَاشِيدِهِمُ المدوية التى تَصُمُّ الآذَانَ، وَحِينَ أَطَلَّ أَهَالِى القُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ فَوْقِ أَسْوَارِهِم،

وَجَدُوا سَبْعَةً وَسِتِّين سَفِينةً مَمْلُوءَةً رِجَالا وَعَتَادًا تُبْحِرُ فِى المِينَاءِ، وَهُمْ لا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ مَا يُشَاهِدُونَهُ، فَامْتَلأَتْ قُلُوبُهم بالفَزَعِ والهَلَعِ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ سُقُوطَ المَدينَةِ لا مَفَرَّ مِنْه، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ قَرِيبًا .

كَانَ الهُجُومُ عَلَى أَسْوارِ القُسْطَنْطِينيَّةِ لا يَنْقَطِعُ، وَقَذَائِفُ المَدَافِعِ تَنْهَالُ عَلَيْهَا دُونَ تَوَقُّفٍ أَوْ انْقِطَاعٍ، وَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ يُفَاجِئُ عَدُوَّهُ مِنْ حينٍ لآخَرَ بِفَنٍ جَدِيدٍ مِنْ فُنُونِ القِتَالِ حَتَّى تَحَطَّمَتْ أَعْصَابُ المُدَافِعِينَ عَنِ القُسْطَنْطِينيَّةِ، وَانْهَارَتْ قُوَاهُم، وَصَارَ أَهَالِى المَدِينةِ لا يَدْرُون مِنْ أَيْنَ يَأتِيهِم الخَطَرُ الدَّاهِمُ.

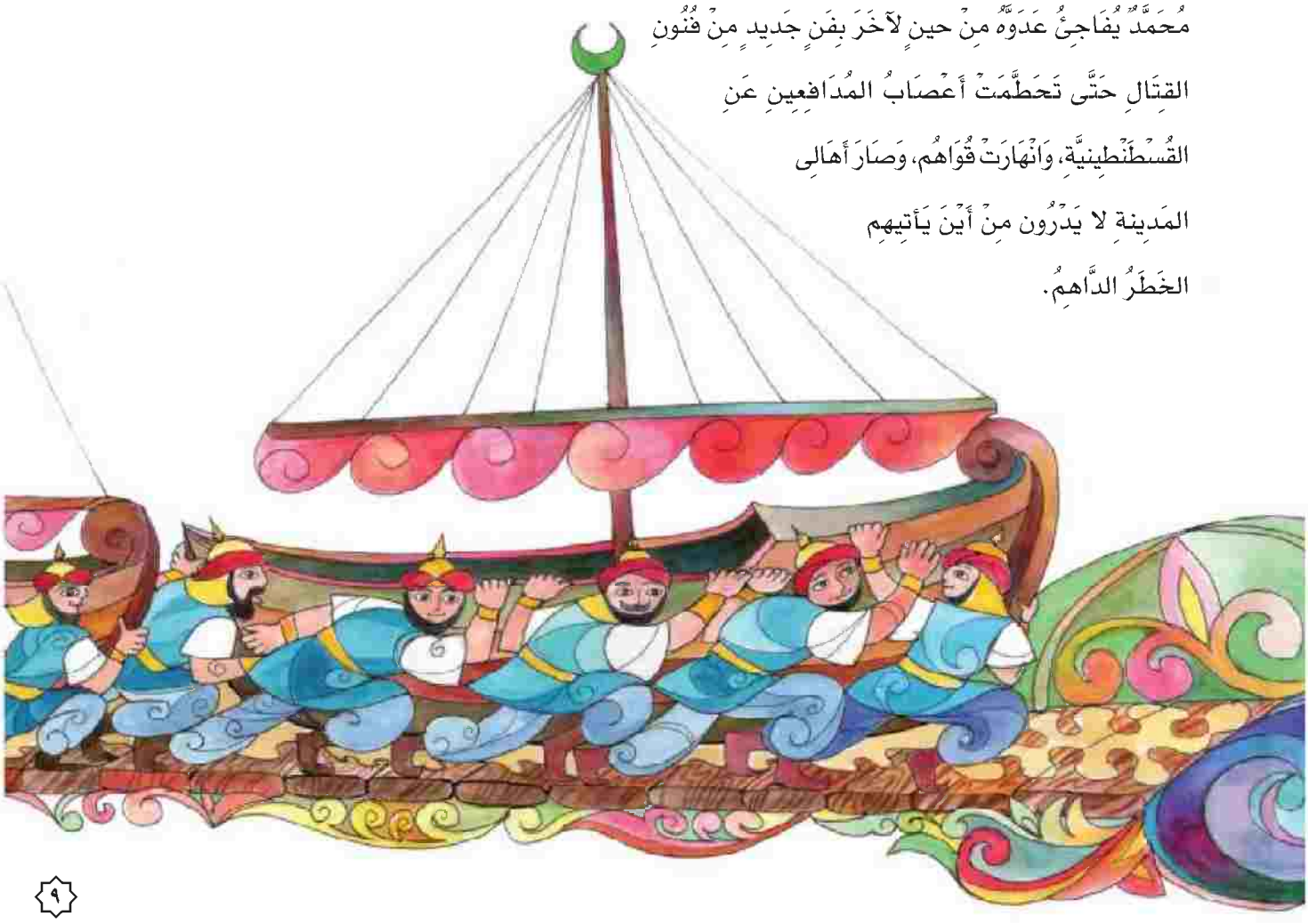

وَظَلَّ الأَمْرُ كَذلِكَ حَتَّى أَمَرَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بالهُجُومِ الكَاسِحِ وَذَلِكَ فِى السَّاعَةِ الوَاحِدَةِ مِنْ صَبَاحِ يَومِ الثُّلاثَاء المُوافِقِ (١٣ من جمادى الأولى ٨٥٧ هـ = ٢٢ من مايو ١٤٥٣م).

وَكَانَ الجُنُودُ قَدِ اسْتَعَدُّوا لِهَذَا الهُجُومِ، وَصَامُوا قَبْلَهُ تَقْوِيَةً لِعَزَائِمهِم، وَأَكْثَرُوا مِن الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ والصَّلاةِ، وَاسْتَشْعَرُوا نَسائِمَ النَّصْرِ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُم إِلَى الشَّهَادَةِ، وَلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِى اللَّحْظَةِ الَّتِى عَلا فِيهَا صَوْتُ الأَبْوَاقِ الَّتِى تَهُزُّ صَمْتَ اللَّيْلِ انْطَلَقَتْ نِيرَانُ المَدَافِعِ تَدُكُّ أَسْوَارَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَانْدَفَعَ الجُنودُ العُثْمَانِيُّون يَهْجُمُونَ عَلَى السُّورِ مِنَ البَرِّ وَالبَحْرِ دُونَ خَوْفٍ أَوْ فَزَعٍ، وَفِى شَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ، أَفْوَاجًا وَرَاءَ أَفْوَاجٍ كَالأَمْوَاجِ المُتَتَابِعَةِ، يَتَسَلَّقُونَ الأَسْوَارَ بِسلالِمَ، لا يَهَابُونَ المَوْتَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ السِّهَامِ الَّتِى تَنْهَالُ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمِنَ الحِجَارَةِ الَّتِى تَتَسَاقَطُ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَالمَطَرِ، وَفِى ظِلِّ هَذَا الهُجُومِ الكَاسِحِ اسْتَطَاعَتِ المَدَافِعُ أَنْ تُحْدِثَ فَتْحَةً فِى الأَسْوَارِ، وَنَجَحَ الجُنُودُ العُثْمَانِيُّونَ فِى اجْتِيازِ الخَنَادِقِ المَحْفُورَةِ حَوْلَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ حَتَّى بَلَغُوا الأَسْوَارَ، وَتَسَلَّقُوهَا بِالسَّلالِمَ، وَنَجَحُوا فِى زَحْزَحَةِ المُدَافِعِينَ عَنْ هَذِهِ المِنْطَقَةِ، بَعْدَ أَنِ انْهَارَتْ مُقَاوَمَتُهُم، وَاضْطَرُّوا لِلْهَرَبِ وَالفِرَارِ، وَفُوجِئَ أَهْلُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ بِأَعْلامِ العُثْمَانِيِّين تُرَفْرِفُ عَلَى الأَسْوَارِ، وبِالجُنُودِ تَتَدَفَّقُ إِلَى دَاخِلِ المَدِينَةِ كَالسَّيْلِ الجَارِفِ، وَفِى الوَقْتِ نَفْسِهِ اسْتَطَاعَ العُثْمَانِيُّونَ رَفْعَ السِّلْسِلَةِ الَّتِى فِى مَدْخَلِ الخَلِيجِ فَدَخَلَتْ سُفُنُهُمْ إِلَى الخَلِيجِ، ثُمَّ إِلَى المَدِينَةِ نَفْسِهَا.

لَمْ يَعُدْ شَىْءٌ يَقِفُ فِى وَجْهِ العُثْمَانِيِّين بَعْدَ أَنْ قُتِلَ الإِمْبِراطُورُ، وَجُرِحَ قَائِدُ الجَيْشِ «جُسْتِنْيَان»، وَفُتِحَتِ الأَبْوَابُ وَجَمِيعُ المَنَافِذِ، فَقَد هَرَبَ المُدَافِعُونَ الْتِمَاسًا لِلنَّجَاةِ، وَتَزَاحَمَ النَّاسُ أَمَامَ الأَبْوابِ أَمَلا فِى الفِرَارِ، وَمَنْ بَقِىَ مِنْهُم فِى المَدِينَةِ بَقِىَ خَائِفًا يَنْتَظِرُ مَصِيرَهُ المَجْهُولَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ الجُنُودُ فَتْحَ المَدِينَةِ، وَقَضَوْا عَلَى كُلِّ مُقَاوَمَةٍ، دَخَلَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ فِى مَوْكِبٍ مَهِيبٍ، يَتْبَعُهُ وُزَرَاؤُهُ وقُوَّادُ جَيْشِهِ وَسَطَ هُتَافَاتِ الجُنُودِ الَّتِي يَمْلأُ صَدَاهَا المَكَانَ «مَا شَاءَ اللَّهُ، مَا شَاءَ اللَّهُ، لِيَحْيَى سُلْطَانُنَا، لِيَحْيَى سُلْطَانُنَا».

وَلَمَّا بَلَغَ القَائِدُ المُنْتَصِرُ وَسَطَ المَدِينَةِ تَوَقَّفَ عَنِ السَّيْرِ، وَخَطَبَ فِيمَنْ حَوْلَهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِم بِصَوْتٍ مُتَّئِدٍ وَبِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيحَةٍ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ:

– «لَتَفْتَحُنَّ القُسْطَنْطِينِيَّةَ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ» ثُمَّ هَنَّأَ جُنُودَهُ بِالنَّصْرِ، وَأَوْصَاهُم بِالتَّوَاضُعِ وَعَدَمِ الغُرُورِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالفَضِيلَةِ وَحُسْنِ المُعَامَلَةِ، وَالرَّأفَةِ بِسُكَّانِ المَدِينَةِ.

وَمَضَى مَوْكِبُهُ حَتَّى بَلَغَ كَنِيسَةَ آيَا صُوفْيَا حَيْثُ تَجَمَّعَ أَهَالِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ وَرُهْبَانُهُم، وَمَا إِنْ عَلِمُوا بِوُصُولِ السُّلْطَانِ الفَاتِحِ حَتَّى خَرُّوا سَاجِدِينَ وَرَاكِعِينَ، تَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُم بِالبُكَاءِ وَالعَوِيلِ، لا يَعْرِفُونَ مَصِيرَهُم.

وَلَمَّا وَصَلَ الفَاتِحُ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَصَلَّى لِلَّهِ رَكْعَتَيْنِ شُكْرًا عَلَى تَوْفِيقِهِ لَهُ بِالفَتْحِ ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى أَهَالِي المَدِينَةِ، فَلَمَّا وَجَدَهُم عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ قَالَ لَهُمْ:

– «قِفُوا .. اسْتَقِيمُوا .. فَأَنَا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ، أَقُولُ لَكُمْ وَلِجَمِيعِ إِخْوَانِكُم وَلِكُلِّ المَوْجُودِينَ، إِنَّكُمْ مُنْذُ اليَوْمِ فِي أَمَانٍ عَلَى حَيَاتِكُم وَحُرِيَّاتِكُم».

ثُمَّ طَلَبَ السُّلْطَانُ الفَاتِحُ مِنْ أَحَدِ المُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِى صُحْبَتِهِ أَنْ يُؤَذِّنَ بِالصَّلَاةِ، فَارْتَفَعَ الأَذَانُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى هَذِهِ الكَنِيسَةِ العَظِيمَةِ، وَأَصْبَحَتْ مَسْجِدًا جَامِعًا مِنْ أَعْظَمِ مَسَاجِدِ الإِسْلَامِ، وَلَا يَزَالُ يُعْرَفُ حَتَّى الآنَ بِجَامِعِ آيَا صُوفْيَا، وَأَعْلَنَ السُّلْطَانُ أَنَّ أَوَّلَ صَلَاةِ جُمُعَةٍ قَادِمَةٍ سَتُقَامُ فِيهِ، فَأَخَذَ العُمَّالُ فِى إِعْدَادِهِ لِذَلِكَ، وَسُمِّيَتِ المَدِينَةُ «إِسْلَامْبُولَ» أَى مَدِينَةَ الإِسْلَامِ، وَاتَّخَذَهَا الفَاتِحُ عَاصِمَةً لِدَوْلَتِهِ، وَهِىَ الَّتِى تُعْرَفُ الآنَ بِاسْتَانْبُول.

وَقَدْ سَلَكَ السُّلْطَانُ الفَاتِحُ مَعَ أَهْلِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ سِيَاسَةً مُتَسَامِحَةً، فَأَمَرَ جُنُودَهُ بِحُسْنِ مُعَامَلَةِ مَنْ فِى أَيْدِيهِم مِنَ الأَسْرَى وَالرِّفْقِ بِهِم، وَقَامَ بِنَفْسِهِ بِفِدَاءِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الأَسْرَى مِنْ مَالِهِ الخَاصّ، وَاجْتَمَعَ مَعَ الأَسَاقِفَةِ وَهَدَّأَ مِنْ رَوْعِهِم، وَطَمْأَنَهُم عَلَى حَيَاتِهِم وَعَقَائِدِهِم، وَأَمَرَ بِتَنْصِيبِ بَطْرَيَرْك جَدِيدٍ لَهُمْ، فَانْتَخَبُوا وَاحِدًا مِنْهُم.

وَتَوَجَّهَ البَطْرَيَرْكُ الجَدِيدُ فِى مَوْكِبٍ حَافِلٍ مِنَ الأَسَاقِفَةِ إِلَى قَصْرِ السُّلْطَانِ فَاسْتَقْبَلَهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَبَالَغَ فِى إِكْرَامِهِ وَالحَفَاوَةِ بِهِ، وَتَحَدَّثَ مَعَهُ فِى مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى، وَكَمْ كَانَتْ دَهْشَةُ هَذَا البَطْرَيَرْك حِين رَأَى مِنْ سُلُوكِ السُّلْطَانِ مَا جَعَلَهُ يُنْكِرُ مَا كَانَ يَدورُ فِى ذِهْنِهِ عَنِ الإِسْلَامِ وَعَنِ العُثْمَانِيِّين، فَهَا هُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ سُلْطَانٍ رَفِيعِ الثَّقَافَةِ، كَرِيمِ الخُلُقِ، سَمْحِ النَّفْسِ، صَاحِبِ رِسَالَةٍ وَعَقِيدَةٍ دِينِيَّةٍ رَاسِخَةٍ، وَإِنْسَانِيَّةٍ رَفِيعَةٍ.

وَلَمَّا هَمَّ البَطْرَيَرْكُ بِالانْصِرَافِ كَانَ السُّلْطَانُ فِى وَدَاعِهِ حَتَّى بَابِ القَصْرِ، وَأَعَانَهُ عَلَى رُكُوبِ جَوَادِهِ، وَأَمَرَ وُزَرَاءَهُ وَرِجَالَ دَوْلَتِهِ أَنْ يَصْحَبُوهُ إِلَى مَقَرِّهِ. وَجَعَلَهُ فِى مَرْتَبَةِ الوُزَرَاءِ.

وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلَائِلُ عَلَى فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ حَتَّى سَادَهَا الأَمْنُ وَالسَّلَامُ وَعَادَتْ إِلَى حَيَاتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ، وَاسْتَأْنَفَ النَّاسُ أَعْمَالَهُم فِى هُدُوءٍ وَاطْمِئْنَانٍ.